جزيرة سقطرى وسكانها

كم تراك الاول للآخر وكم في رحاب هذا العمور من بلاد تعاقبت عليها اجيال وسعد فيها ابن آدم وشقي وامرهُ مجهول لدى اخوانهِ . ان قلت لابناء هذا القطر انهُ على مقربة من بلادكم جزيرة اسمها شائع على ألسنكم وبضائعها معروفة في اسواقكم وهي جزيرة سقطرى التي ينسب اليها الصبر السقطري ويؤتى منها بالمقر ودم الاخوين فاخبرونا عما تعرفونهُ من امرها نظروا اليك مدهوشين لا يجيبون جواباً ولا يجدون في ما لديهم من معجمات البلدان ما يشفي الغليل

قال صاحب القاموس وصاحب التاج "سقطرى وسقطراء واسقطرى واهلها يقولون سكوترة جزيرة متسعة بحر الهند على يسار الجائي من بلاد الزنج وبينها وبين الخط ثلاثة ايام مع لياليها والعامة تقول سقوطرة . يُجلَب منها الصبر الجيد الذي لا يوجد مثلهُ في غيرها ودم الاخوين وهو القاطر المكي وغيرهما وفيها مياه جارية ونخيل كثيرة . وقد ذكر المؤرخون من عجائب هذه الجزيرة ما يحيلهُ العقل . واهلها يونان لا يُعرَف اليوم يونان على صحة سواهم . لان ارسطو اشار على الاسكندر باجلاء اهلها واسكان طائفة من اليونان بها لحفظ الصبر لعظم منفعتهِ . ومن مدن هذه الجزيرة بروة وملنده ومتيسة وفي الاخيرة يسكن ملك الزنج"

وقال ابو الفداء في تقويم البلدان "قال المهلبي في العزيزي وجزيرة سقطرة طولها ثمانون فرسخاً واهلها نصارى نسطورية . قال ابن سعيد وهي جزيرة مشهورة واليها ينسب الصبر السقطري المفضل . قال الشريف الادريسي وبينها وبين عدن أبين اربعة مجارٍ وقيل ثلاثة"

وقال ياقوت الحموي "سقطرى وسقطراء جزيرة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها والسالك الى بلاد الزنج يمرُّ عليها واكثر اهلها نصارى . يجلب منها الصبر ودم الاخوين وهو صمغ شجر لا يوجد الاَّ في هذه الجزيرة يسمونهُ القاطر . وكان ارسطاطاليس كتب الى الاسكندر حين سار الى الشام في امر هذه الجزيرة يوصيهِ بها وارسل اليهِ جماعة من اليونان ليسكنهم بها لاجل الصبر القاطر فسيَّر الاسكندر اليها جماعة من اليونان واكثرهم من مدينة ارسطاطاليس فغلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة باسرها وكان لتهند بها صنم عظيم فنقل الى بلاد الهند . فلما مات الاسكندر وظهر المسيح بن مريم

تنصر من كان بها من اليونان و بقوا على ذلك الى هذا الوقت فليس في الدنيا موضع والله اعلم وفيه قوم من اليونان يحفظون انسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير اهل جزيرة سقطرى . وكان يأوي اليها براوج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار واما الآن فلا "

وقال الحسن ابن يعقوب الهمذاني اليمني " ومما يجاور سواحل اليمن من الجزائر جزيرة سقطرى واليها ينسب الصبر السقطري وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً وفيها من جميع قبائل مهرة وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى . ويذكرون ان قوماً من بلد الروم طرحهم بها كسرى ثم نزلت بهم قبائل من مهرة فسكنوهم وتنصروهم بعقلهم . وبها نخل كثير و يسقط بها العنبر وبها دم الاخوين وهو الأيدع . والصبر الكثير . واما اهل عدن فيقولون لم يدخلها احد من الروم ولكن كان لاهلها الرهبانية ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة وظهرت فيها دعوة الاسلام ثم كثر بها الشراة فعدوا على من بها من المسلمين وقتلوهم وبها مسجد يقال له المسرق "

هذا ما وقفنا عليه في الكتب العربية . وفي معجمات الافرنج كلام وجيز عن هذه الجزيرة لا يتعدى وصفها الجغرافي . وقد قصدها بعض العلماء حديثاً و بحثوا عما فيها من انواع الحيوان والنبات . وآخر من ذهب اليها منهم الرحالة بنت الانكليزي الذي ذكرنا نعيه في الجزء الماضي من المقتطف . وجاء نا جزء يونيو من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية وفيه مقالة عنها بقلم وفي آخر ما كتبه وقد وصفها فيها وصفاً مسهباً فرأينا ان نلخص منها ما يلي لما فيه من الفكاهة والفائدة قال

كان الذي صنع قارة افريقية رمى منها قطعة صغيرة في الاوقيانوس الهندي فكان منها جزيرة سقطرى . وهي جبلية الارض كثيرة الخصب ولعلها مجهولة اكثر من كل الجزائر المأهولة . يحسبها الجغرافيون تابعة لافريقية وهي في الحقيقة جزء من بلاد العرب . وقلّ من ذهب الى الهند واستراليا بطريق البحر الاحمر الا رآها في طريقه لكن الذين دخلوها من الاوربيين يعدّون على الاصابع

اقمنا فيها مدة شهرين من هذا الشتاء واخترقناها من طرف الى طرف لكي نحيط الالمام عن تاريخها القديم ونعرف شيئاً عن احوال سكانها الحاضرين

ذهب دريت باشا الى انها هي تونوتر المذكورة في الآثار المصرية وكان القدماء يجلبون منها اللبان والمر . والارجح انهُ مصيب لان القدماء لم يكونوا يعرفون بلاداً اخرى ينتج منها ما ينتج من سقطرى من دم الاخوين وانواع اللبان والمر وغير ذلك من الصموغ الثمينة

وكلها من النوع المفضل

وقد قيل لنا قبل الذهاب اليها ان سكانها يتكلمون لغة مهرة فحسبنا ذلك صحيحاً لان آريان (المؤرخ الذي نشأ في القرن الثاني للميلاد) قال ان جزيرة ديوسقوريدا (اي سقطرى) كانت في ايامهِ خاضعة لملك من بلاد اليمن او بلاد العرب أتى منها اليها واللهِ . ثم ثبت لنا ان لغتهم مستقلة عن المهرية والعربية ولو كان فيها كلمات كثيرة منهما . وليس في لسان اهلها كلمة للاسد ولا للفرس ولا للكلب لان هذه الحيوانات لا توجد في جزيرتهم

وقد ظن شوينفورث (العالم الباحث والرحالة المشهور) ان كلمة سقطرى هندية وهي في الاصل ديوسقطورى فحرفها اليونان وجعلوها ديوسقوريدس

ودخل البرتوغاليون هذه الجزيرة سنة ١٥٣٨ فوجدوا فيها شيخاً من العرب مقيماً في مدينة تسمى زوقو اي السوق وهي الآن خراب وخرائبها في بقعة طيبة يحيط بها النخيل وبجانبها خور عميق عذب الماء ولعلهُ كان مرفأ لها ثم فصلتهُ الرمال عن البحر . وفوقها جبل الحاجر والنخل يمتدُّ اليهِ فيجعل منظرها من البهج المناظر

وقد اكثر الاقدمون من ذكر اليونان الذين اقاموا في سقطرى لكنني ارتاب في صحة ذلك وان كانوا قد سكنوها حقيقة فلم يتركوا لهم اثراً فيها لان كل الكتابات المنقوشة التي وجدت فيها حبشية ووجدنا فيها قبوراً حبشية وقبوراً مثل قبور النجاة الذين كانوا يسكنون في ساحل البحر الاحمر شمالي سواكن وكانوا خاضعين لملوك الحبشة

والارجح ان ملوك الحبشة الذين تغلبوا على بلاد العرب في بداءة التاريخ المسيحي ونصَّروا اهلها تغلبوا على سقطرى ايضاً ونصَّروا اهلها وظلت النصرانية فيها زماناً طويلاً بعد انتقاص ظلها عن بلاد العرب فقد اثبت السيَّاح انها بقيت فيها الى اواسط القرن السابع عشر ثم زالت تماماً ولم يبقَ منها الاَّ رسوم بعض الصلبان على الحجارة والمدافن القديمة وخرائب قديمة يقول السكان انها من بناء الافرنج والنصارى . وقد ثبت لي ان اهالي هذه الجزيرة بقوا نصارى على مذهب الكنيسة الحبشية الى عهد غير بعيد

وفيها الآن اقوام من البدو يسكنون جبل حاجر والاودية القريبة منهُ و يضربون بواشيهم من مكان الى آخر وقد قيل انهم من سكان الكهوف القدماء لكنني وجدتهم يسكنون بيوتاً مبنيَّة بناء ولا يلجأون الى كهوف الجبال الاَّ اذا اشتدَّ الحر والجفاف واضطرُّوا ان يذهبوا بواشيهم الى النجود في طلب المرعى وذلك من شهر يونيو (حزيران) الى نوفمبر (تشرين الثاني) وهم حسان المنظر خفاف الابدان سراع الحركة شديدو السمرة طوال اللحى بيض

الاسنان يشبهون البدو الذين في بلاد مهرة في هيئاتهم وعاداتهم . وسكان جبل حاجر منهم يحبون الغناء والرقص ولا يعبأون بالشعائر الدينية ولعلهم من سكان بلاد العرب الاصليين الذين كانوا فيها قبلما دخلها العرب الحاليون (اي من العرب العاربة لا من المستعربة)

وبيوتهم مستديرة لا اثاث فيها غير الحصر ينامون عليها وفيها جرار يضعون فيها السمن واوطاب يخضون فيها اللبن ورأيت في بيت منها حزمة معلقة في السقف فدنوت منها واذا هي طفل معلق في شيء كالكيس لينام فيه . ويقترون ابدانهم بما زر يحوكونها في جزيرتهم وقطعانهم كثيرة من البقر والغنم والمعزى ولهم اعتناء شديد بها ولها في الجزيرة مراعٍ كثيرة الكلا . والبقر سمينة غزيرة اللبن . ولا زراعة عندهم غير انهم اذا قلّ المرعى حفروا آباراً وعملوا الارض باداة من الخشب وزرعوها نوعاً من الحبوب وسقوها من ماء الآبار

وجبل حاجر في وسط الجزيرة وهو حياتها فانهُ مرتفع عن سطح البحر نحو خمسة آلاف قدم فيجذب ابخرة الهواء و يحوّلها مطراً ولذلك تكثر الغدران والبرك على جوانبهِ حتى في اشد الاشهر جفافاً . واذا جاء فصل المطر اترعت هذه الغدران وصارت انهاراً كبيرة لا تعبر وجرفت الصخور والاشجار ثم يظهر النبات في الجزيرة و يكسيها حلة خضراء

والى جنوبي جبل حاجر ثلاثة غدران كبيرة تسقي الاودية المحيطة بها لكن مياهها لا تصل الى البحر بل تغور في الرمال التي على شاطئهِ . والى شماليهِ غدران كثيرة وصخر الجبل هناك قريب من البحر فتصل مياه الغدران اليهِ ولكنها تصبّ في اخوار مفصولة عنهُ . وحول الغدران نخل كثير وعليهِ اعتماد الاهالي في طعامهم وهم يارعون في استعمال خوصهِ لاغراض كثيرة فيصنعون منهُ الحصر والقفف والحبال وما اشبه

وجبالهم اكثر من جبال بلاد العرب قدّاً ولكلٍّ منهم سمة مخصوصة يسم بها جمالهُ وبعض هذه السمات حروف حميرية وبعضها رسوم أخرى اظنها كانت حروفاً من لغة سبا القديمة

وشهرة جبل حاجر قائمة بالاشجار التي يقطر منها الايدع (دم الاخوين) وهو صمغ احمر قانئ وهذه الاشجار منتشرة فيهِ كلهِ مما ارتفاعهُ الف قدم عن سطح البحر فصاعداً وارتفاع الشجرة منها عشرون قدماً إلى ثلاثين . وقد اشملها اهالي سقطرى بعد ان انتشرت زراعتها في سمطرة واميركا الجنوبية واماكن اخرى حيث الناس اداب على استغلال الارض واستثمار اشجارها . وهناك شجرة اخرى متفخمة الساق كأنها مصابة بداء الفيل وهي اقبح شجرة رأيتها منظراً ولكنها اجمل الاشجار زهراً كأن الطبيعة خجلت مما خصتها بهِ من القبح فعاضتها منهُ بهذا الزهر البديع . ويتلوها في قبح المنظر شجرة القناء . وهي ضخمة

الساق قصيرة الاغصان قليلة الاوراق

وجنوبي جبل حاجر اودية تغطيها اشجار اللبان وهي حمراء الاوراق والزهر ولكن السكان يجهلون امرها ولا ينتفعون بها وهناك ايضاً اشجار المر والتمر الهندي والسكان ينقعون التمر الهندي و يصنعون منهُ شراباً مبرداً . وعندهم البرتقال البري وثمرهُ اصفر فاتح كالمشمش لكنهُ مر كالعلقم ورمانهم بديع المنظر لكن حبوبهُ لا تؤكل

وقد اهمل اهالي سقطرى الاعتناء بنبات الصبر ولكنهم لا يزالون يجمعون صمغهُ وقد عرضوا علينا قليلاً منهُ . وهم يزرعون قليلاً من التبغ والقطن ولا يبعد ان يجود عندهم البن والشاي اذا اعتنوا بزراعتهما

وفي جبل حاجر فنن كثيرة ارتفاع اعلاها ٤٩٠٠ قدم عن سطح البحر واسمها جبل بيت ملوك وهو اسم حبشي وكلها شاهقة يتعذر ارتقاؤها وتسلقها فنن الذرى بأت وتنة ادونة وفيها المعزى البرية وقط الزباد ولا يبلغها حيوان آخر غيرهما

بتنا مرة في الشعب الجنوبي من جبل حاجر في مخيل بين نهرين تحيط بنا خمائل غضاء من كل ناحية . ونزلنا مرة اخرى تحت اشجار التمر الهندي وهي غضاء ملتفة وهناك خرائب مدينة قديمة يقال لها فريجة ولم يزل منها سور متهدمٌ ثماني اقدام او عشر اقدام كان سداً لمنع السيل من الاضرار بالمدينة وهو من بناء اناس يعرفون طرق رفع الاثقال وقد خرب اكثرهُ ولم يبقَ منهُ الاَّ ما طولهُ مئة قدم . ولا شبهة في ان هذه المدينة كانت محل تجارة واسعة في اللبان والمر ودم الاخوين لان الاشجار التي تقطر منها هذه الصموغ كثيرة في ما يجاورها . وقد قيل ان اهالي البرتقال بنوها لكنني لم اجد في خرائبها ما يؤيد ذلك بل لم اجد في الجزيرة كلها شيئاً من آثارهم . والمرجح عندي انهم لم يبنوا فيها بناء متيناً لانهم اقاموا فيها اربع سنوات ثم وجدوها بلا مرفإ يقي سفنهم فغادروها

ويتسع الوادي تحت خرائب فريجة ويمتد إلى البحر في خط مستقيم وهناك تغور مياه الامطار في رمال الساحل

ولما وصلنا الى سقطرى نزلنا اليها من طرفها الغربي في بلد يسمى كلنزيا وهناك مرفأ صغير للسفن وفي هذا البلد اخلاط من العرب والزنج والبدو . والبدو من اهالي الجزيرة ينزلون الى هناك باتجاه السمن يرسلونهُ الى زنجبار ومسكت وغيرها من البلدان العربية

وسمن سقطرى مشهور في سواحل افريقية و بلاد العرب ويكاد يكون البضاعة الوحيدة التي تصدر منها الآن كأن السكان لا يعملون عملاً الاَّ استخراجهُ وعند سلطانهم مركب

يشحن السمن فيه الى البلدان المجاورة

وفي سقطرى نحو اربع مئة قرية في كل قرية منها خمسة بيوت الى عشرة وذلك بعدد اهلها من اثني عشر الفاً الى ثلاثة عشر

وفي كلنزيا جامع صغير وفي كذوب جامع آخر وفي تمريدا جامعان وفي كل واحد من المساجد التي في الجزيرة اماء القرية فلا مساجد فيها لان البدو لا يقيمون الشعائر الدينية . ويقرب كلنزيا خور فاسد الماء يشرب منهُ اهاليها ولذلك تكثر فيهم الحميات والامراض المعدية لكننا وجدنا على ثلاثة اميال منها جدولاً عذب الماء وبجانبهِ خرائب مدينة قديمة فكنا نستقي منهُ ولولا ذلك ما امكننا الاقامة فيها

والسكان لا يعرفون الصابون ولا النظافة . واكثر علاجهم الوحيد الذي يداوون بهِ كل الآفات . واما بدو الجبل فيتداوون بالحجامة ايضاً ولكنهم لا يستعملون العقاقير الطبية مع انها كثيرة في جزيرتهم

ونساء كلنزيا يصبغن وجوههن وايديهن بالعصفر مثل النساء في جزيرة بلاد العرب ويلبسن ثوباً طويلاً مصبوغاً باللون الازرق او الاحمر ويرفعن ذيلهُ ويطرحنهُ على ذراعهن ويشرفن ببرقع يغطي نصف وجوههن ويلبسن الخواتم والاسوار من الفضة والعاج من الزجاج وليس في الجزيرة كلها شيء يستحق النظر وكل ما فيها تقليد لما في مساجد بلاد اليمن

وبيوت كلنزيا مظللة بالنخيل وبجانب كل بيت منها حديقة صغيرة يزرعون فيها البقطين والبطيخ والنبق ويربون الدجاج في تروس السلاحف ودجاجهم صغير جداً وبيضهُ كبيض الحمام

وسلطان سقطرى هو السلطان سليمان ابن اخي السلطان علي سلطان مهرة الذي زرناهُ منذ عامين وهو حاكم على الجزيرة من قبل عمهِ ولما اتينا تمريدا وهي عاصمة الجزيرة لم نتمكن من زيارتنا من تصرو في خلاف وهي على ثلاثة اميال من تمريدا وهو كهل مهيب الطلعة لابس خلة بيضاء في منطقتهِ خنجر مرصع من خناجر مسكت وعلى جنبهِ سيف مشطب . فرددنا لهُ الزيارة في قصرو في تمريدا ثم شاهدناه مرة اخرى قبلما غادرنا الجزيرة لاننا اتينا خاصرمكية الى عدن فاخذ منا مضاعف الاجرة التي تدفع عادةً لكنهُ عاد فاهدى الينا عجلين مسمنين واربعة حملان

وتمريدا بلدة جميلة بنهرها وخورها ونخيلها وبيوتها وجامعيها وجبل حاجر المشرف عليها . والجامعان جديدان لان الوهابيين الذين اجتاحوا الجزيرة سنة ١٨٠١ هدموا كل جامعاتها القديمة

واشتهرت سقطرى من قديم الزمان بان نساءها يسحرن السفن التي تمر بها . ولم يزل

اهالي البلدان المجاورة لها يعتقدون هذا الاعتقاد في اهلها فقد كان معنا غلامان شماليان (من بلاد الصمالي اي الشمال لانوعها شمالي الآتي من الهند كما تقع بلاد اليمن الى يمينه) كان في جزع دائم من ان يحجرهم اهالي سقطرى كما سحروا امرأة من سكت وحوّلوها قمة على زعمهم

وشرقي سقطرى مثل غربيها كثير الاودية والنجود والارض النجد مغطاة بالكلإ وفيها كثير من الحمر البرية والبدو يصيدونها ويستخدمونها كالحمير الاهلية

والجانب الشرقي آهل من الغربي وماؤه غزير ومواشيه كثيرة وقد صعّدنا في آكامه حتى بلغنا مكاناً يسمّى رأس موي والارض هناك تغرّ كثير الاعشاب والانجم مثل غيرها من اراضي الجزيرة لكننا وجدنا فيها من آثار سكانها الاقدمين اكثر مما وجدنا في غيرها من انحاء الجزيرة ووجدنا على خمسة اميال من راس موي اساس بناء مربع طوله ثلاثون متراً في مثلها عرضاً وسمك جدرانه نحو مترين وهو مقسوم من الداخل بجدران متقاطعة ولهُ جناح من الجهة الشرقية الجنوبية طوله ٢٢ قدماً وعرضهُ ١٤ قدماً . وبالقرب منهُ آثار ابنية اخرى وكلها من آثار سكانها السالفين

وقد مرّ على سقطرى ثلاثة اطوار مثل كل بلاد العرب فكان سكانها اولاً من الصابئة ثم تنصّروا ثم اسلموا حديثاً . ودخلها البرتغاليون سنة ١٥٣٨ ولكنهم لم يقيموا فيها طويلاً ثم اجتاحها الوهابيون في اوائل هذا القرن ودخلها الانكليز سنة ١٨٣٥ ثم رأوا ان لا مرفأ فيها فتركوها وفضلوا عدن عليها مع ان اراضيها جنة بالنسبة الى اراضي عدن القاحلة . ثم عاهدت الحكومة الانكليزية سلطانها على ان تدفع اليهِ ٣٦٠ ريالاً كل سنة فيتعهد لها هو وخلفاؤه من بعدهِ بان يحمي كل سفينة تكسر بقربها ويحتفظ بمجارتها ووسقها ولا يتنازل عن جزيرته لدولة أخرى الاّ برضى انكلترا

واهالي سقطرى مسالمون جداً سهلو الانقياد امناء . كنّا نترك امتعتنا في العراء ليلاً فلم يفقد منها شيء . والنقود قليلة عندهم وكذلك المطامع والاحقاد وسيبقون في نعيم الامن مدى الدهر ما لم يقتبسوا مصايب التمدّن الحديث . ولقد اسعدتهم العناية بان بلادهم ليس فيها مناجم ذهب ولا الناس راغبون الآن في دم الاخوين واللبان والمر كما كان الاقدمون والاّ لاجتاحوا جزيرتهم ونكلوا بهم . انتهى ملخصاً

وطول سقطرى نحو سبعين ميلاً وعرضها عشرون ومساحتها ١٣٨٠ ميلاً مربعاً . وقد ضمت الى الاملاك الانكليزية سنة ١٨٨٦